ماهو
القضاء والقدر؟

هل الإنسان مسيَّرٌ أم مخيَّر ؟
كيف نفهم الأحاديث التي توهّم بعض الباحثين أنها تقرر عقيدة الجبر ؟

محمد محمود عجاج

صـــدر الاذن بطبـــع هــذا الكتـاب مع اضافـاته من وزارة الاعـلام بالمدينـة المنـــورة بخطابهـا رقـم ١٣٩٣/م/٣ وتاريخ ١٤١٠/١٢/٢٦ هـ .

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

(بين يدي الكتاب)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبع سنته بإحسان إلى يوم الدين سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم وبعد :

فإن موضوع القضاء والقدر بحر عميق الغَوْر ، بعيد القرار ، زلّت لدى الخوض فيه أقدام ، وتاهت فيه عقول وأفهام ، وغرقت في لجج الضياع ، فهو بحث خطير ودقيق لتعلقه بصفات الجلالة الإلهية المقدسة مباشرة ، وبكيفية فهمها وتفسيرها دون وقوع في الخطأ وسوء الأدب مع الله جلّ في علاه ، ومن أجل ذلك ترددت كثيراً عند الكتابة في هذا الموضوع ، فكنت كمن يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، تأتيني خاطرة أو يعترضني موقف يدعوني للمضيّ قدماً لإنهاء الموضوع ، ثم لا تلبث أن تنثال علي خواطر مثبطة من هنا وهناك تكبح جماح النفس ، ولاسيما ذاك الشعور العميق

بالرهبة لدى الخوض في مواضيع القدر ، فأجد نفسي تلومني : مالَكَ وللقدر ؟ لماذا تورّط نفسك في البحث في موضوع نهى رسول الخلق صلى الله عليه وسلم أمته عن الخوض فيه ؟ وأمرهم بالإمساك إذا ذكر القدر (إذا ذكر القدر فأمسكوا) أخرجه الطبراني وابن عدي ، لماذا تعرض نفسك بهفوة قد تهفوها في هذا الموضوع الخطير لسخط خالقك عليك وربما لانتقاد مرير من بعض عباد الله الحارسين ؟

ثم أعود إلى واقعي فأجد نفسي قد أمضيت مايزيد على عشر سنين في ثانوية الإمام عاصم بن أبي النجود لتحفيظ القرآن الكريم في المدينة المنورة أدرّس مادة التفسير إضافة لمادتي الفرائض وأصول الفقه ، ومنهج التفسير عندنا فيه بعض التوسع نظراً لكون طلبتنا حفظةً لكتاب الله الكريم ويدرسون القراءات ، وعندما أقوم بشرح النصوص القرآنية على السبورة تعترضنا بعض الآيات التي توهم في ظاهرها « الجبر » ولكنها في الحقيقة هي أبعد ماتكون عن ذلك ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكثيراً مالا يقتنع

النابه من الطلبة بمرور الكرام على مثل تلك الآيات الكريمات بل قد يطلب المزيد من التوضيح لأمثال قوله تعالى (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) الكهف/١٧ . وقوله تعالى (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) المدثر/٣١ ، وقوله تعالى (ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) ابراهيم/٢٧ ، وخاصة قوله تعالى (أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وماتعملون) الصافات/٩٥ ، ٩٦ . وربما تساءل أحدهم : (مادامت الهداية والإضلال بيد الله ، فما قيمة العمل ؟) ، و (الله خلقنا وما نعمل فالكل بيده سبحانه ، فلا خيار لنا إذن !!) ، وقد يُحجم البعض الآخر من الطلبة استحياءً ، أو تهيباً ، وهنا أجد نفسي أمام أحد فروض الأعيان ، أعني في مثل هذا الموقف صار فرض عين متعلقاً بي ـ حسب فهمي واجتهادي ـ أن أتصدى للفهم الخاطئ فأستأصله وأمحقه ولأغرس مكانه نبتةً طيبةً صالحة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، طيبٌ جناها ، عطر شذاها كما يفعل البستاني

عندما يستأصل نبتة الشوك المرّ المتطفلةَ ليصلح التربة ، ويفسح المجال لنبتة الخير الطيبة المعطاء ة .

وهكذا أجد نفسي مشوقاً إلى بيان الموضوع أستجمع الآيات وأقارن بينها ، وأفسر هذه بتلك ، فكلام الله الجليل يرتبط بعضه ببعض ، ويوضح ويفسر بعضه بعضاً ، فلا ينبغي لنا أن نأخذ بعضه وندع البعض الآخر ، كل ذلك لأوضح الفكرة ، وأزيل الغشاوة ، ولايجوز أن يترك طالب نابه ولو كان واحداً في الفصل دون توضيح الفكرة له ، وإزالة الغشاوة التي قد تعتري ناظريه ، فالطالب اللامع قد يكون له شأنه مستقبلاً ، (وكما قال صلى الله عليه وسلم (تجدون الناس كإبل مِائةٍ لايجد الرجل فيها راحلة)[1] .

وهل الذي يقود العقول ، ويؤثر في سير الأمم إلا أفراد أفذاذ ؟ ، وهذا الذي لاحظته خلال عملي في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ليس شيئاً أبداً

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، وغيره ، أي المعول عليه من الناس والذي يغنيك عن تطلب غيره قليل .

ولا قطرة من بحر إذا قورن بوقاحة الملاحدة ، وحقارة المتشككة في بلاد إسلامية أخرى والعياذ بالله ، حيث ترى بأم عينك طوابير الملاحدة المشككين يكفرّون الناس ، دعاةً على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها ، يستخدمون من بعض القضايا الفكرية الحساسة كأمثال حرية المرأة ، وإباحة الرق ، والقضاء والقدر وغيرها رؤوس حراب غادرة ، ومعاول تهديم ظالمة يبغون اجتثاث الإسلام من نفوس الناشئة ليقيموا على أنقاض هذا الدين العظيم نظرياتهم الفاسدة المضلّلة التي تكفّلت الأيام التي نعيشها بإماطة اللثام عن وجهها القبيح وزيفها المفضوح ، وأثبت واقع الحياة شناعتها وزورها وبهتانها وخطرها في تدمير حياة الشعوب والأفراد .

مثل هذه المواقف كانت تحثني على الكتابة في موضوع القدر لبيان الوجه الناصع ، وتوضيح الفهم الصائب لعقيدة القدر في الإسلام ، وقد كنت ألقيت في الموضوع أكثر من محاضرة في مساجد بلادي ، وفي المدينة المنورة نضجت عندي فكرة كتابة كتيّب موجز ، يشرح عقيدة القدر عند أهل السنة

بشكل مبسّط مدعّم بالأدلة ، مقرون بالأمثلة التي توضح الفكرة ، وتقيم الحجة ، يستطيع القارئ المعاصر من خلاله وهو في زحمة أعماله أن يصل إلى قدر كبير من المعلومات والإجابات الشافية بعون الله تعالى لكثير من التساؤلات التي قد تثور في نفســـه بين الحين والحين وذلك في وقت قصير ، فيستغني بذلك عن القراءة في الكتب المطوّلة التي قد تشتت ذهنه ولا توصله إلى المقصود .

ولما أنهيت الكتاب وحصلت على الفسح لطباعته وأضحى السبيل أمامه مفتوحاً ليرى النور ، حضرتني خواطر عدة جعلتني أتهيّب الإقدام على طباعته دون الاستفادة من مشورة مشايخنا الأفاضل وأخذ رأيهم خاصة وأن الكتاب يغوص في أعماق موضوع هام وخطير زلّت لدى الخوض فيه عقول جبّارة ، وأفهام كبيرة ، كما أنه يتعرض لتوضيح بعض الأحاديث الواردة في الصحيحين والتي كتب الشيخ محمد الغزالي ـ غفر الله لنا وله ـ مطالباً بإعادة النظر فيها ، واعتبار بعضها من أوهام الرواة في كتابه « السنة » ،

فقرأت الكتاب قبل طباعته مع العديد من العلماء الأفاضل الذين كنت أثقل عليهم إذ أضيف إلى ركام أعمالهم المحيطة عملاً جديداً ليكون ضِغْثاً على إبَّالة ، وكانوا جزاهم الله خيراً ، يجودون بوقتهم الثمين ليساهموا بملاحظاتهم القيمة وقد لمست منهم التشجيع على المضي في طباعة الكتاب ، وكان مسكَ الختام الشيخ المربي أبوبكر الجزائري حفظه الله ، وجزاه خير الجزاء حيث قرأ الكتاب ودعا لي بحصول الأجر والمثوبة على كتابته جزاه الله خيراً .

وها أنا ذا أضع كتابي بين يدي القارئ العزيز داعياً المولى القدير سبحانه أن يفيد به شباب الأمة ، وأن يوفقنا لخدمة دينه ونصرة شريعته إنه على مايشاء قدير وبالإجابة جدير .

محمد محمود عجاج

٨٢٢٣٥٨٠١

(الداعي لهذا البحث)

الذي دعاني أيها الإخوة إلى الكتابة في هذا الموضوع هو أني قد لمست لدى الشباب رغبة مُلِحَّة للخوض في هذا الموضوع وفهمه ، وهذا الموضوع في الحقيقة يغزو عقل كل إنسان ولاسيما حين يكون في مرحلة الشباب المتطلعة لمعرفة كل شيء ، وقد يصل الشاب من جراء خوضه الطائش في هذا الموضوع إلى الحيرة والضياع إلا إذا قيّض الله له سبيلاً يوصله إلى شاطئ السلامة وبَرّ الأمان ، فإذن موضوع القضاء والقدر بقدر ما هو خطير ، هو هام للشباب ، الشبابِ المتَّجِهِ للدعوة إلى الله ، فكيف يخلص الإنسان لدعوته إلى الله وهو نفسه مزعزع في عقيدته ، تساوِرُه حيرة واضطراب في واحد من أهم أركان إيمانه الستة ؟ ، وهذا أهم مادعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع فأبدأ مستعيناً بالله .

« تمهيد »

القضاء والقدر من أعظم المبادئ في العقيدة الإسلامية ، فهو سر انتصارات المسلمين في حروبهم قاطبة ، وسر عظمتهم وأمجادهم وحضارتهم ، وهو المبدأ الذي أذلَّ الأعداء في الحروب ، حيث كان المسلم الذي تَرَبّى في المدرسة المحمدية يعتقد أن الموت حق ، وأن الموت ليس إلا انتقالاً من حياة فانية إلى حياة أخرى باقية يكون فيها حياً عند ربه يرزق ، ويستبشر بنعم الله وأفضاله ، وهو يعتقد أن الموت هذا سيدركه لا محالة سواء أقاتل أم كان على فراشه ولم يقاتل ، فَلِمَ إذن لا يقاتل ليحظى بإحدى الحسنيين : إما حياة في عز الإسلام أو شهادة في سبيل الله ؟ ، ولذا راح الجندي المسلم وهو في غمار المعركة يقول : إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، ويقول : بخ بخ ليس بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ويلقي بنفسه في لجج السيوف اللوامع يريد أن يحطمها طلباً لإحدى الحسنيين ، وهذا مانطق به القائد العبقري والصحابي الجليل (خالد بن الوليد) رضي الله عنه : حيث قال :

(لم يبق في بدني موضع شبر إلا وفيه طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، أو ضربة بسيف ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء)[1] .

ولذلك عندما اصطدم أعداء الإسلام مع المسلمين في الحروب الصليبية وغيرها شعروا بأن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عند المسلمين تؤدي إلى استبسالهم في القتال وطلبهم الموت في سبيل الله ، إذ المسلم يعتقد بأن الموت سيدركه ولو كان في بروج مُشَيَّدة ، فباع روحه وماله ليضمن لنفسه الجنة كما قال الله سبحانه (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...) التوبة / ١١١ ، ولذا بعدما فَشِل أعداء الإسلام في غزو الإسلام عسكرياً راحوا يشُنُّون عليه غزواً فكرياً للتشكيك فيه ، ولطعن عقيدة القضاء والقدر في الصميم ، فاستطاعوا عن طريق المستشرقين وصنائعهم من أبناء المسلمين بالذات أن يطرحوا السؤال التالي : (إذا كان الله قدر على العاصي أن يعصي فَلِمَ

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر .

يعذبه في الآخرة ؟) ، وهم لايقصدون بهذا التساؤل إلا تبرير انحرافهم وآثامهم ومعاصيهم لله ليمرُقوا من الدين كما يمرُقُ السهم من الرَمِيَّة ، وليوجدوا العذر لأنفسهم إذا عصوا ربهم بأن الله قد كتب عليهم ذلك .

ولو كانوا يريدون موضوعية البحث فعلاً لكان يجب عليهم أن يُكْمِلوا تساؤلهم هذا بأن يقولوا أيضاً : (وإذا كان الله كتب علينا الطاعة فَلِمَ يثيبنا عليها ؟) ، وهذا يعني أنهم : ماداموا يعتقدون أن من كتبت عليه المعصية لا يجوز أن يعذب ، كذلك يجب أن يعتقدوا أن من كتبت عليه الطاعة لايستحق من الله أن يثيبه ، ولكن هذا لم يرد من أدعياء الموضوعية .

ثم تساءلوا : (هل الإنسان مسير أم مخير ؟) .

وإجابة على هذه التساؤلات أبدأ القول مستعيناً بالله تعالى :

أولاً ـــ القدر معناه : (علم الله الأزَليُّ القديم بالأشياء على وَفْق ما ستوجد عليه في المستقبل ، وكتابته

سبحانه ذلك في اللوح المحفوظ) ، قال تعالى (إنّا كل شيء خلقناه بقدر) القمر/٤٩ ، وقال (ألم تعلم أن الله يعلم مافي السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) الحج/٧٠ ، الشق الأول من الآية يثبت علم الله سبحانه بما يجري في السموات والأرض وهو القدر ، والشق الثاني يثبت الكتابة في اللوح المحفوظ ، وقال سبحانه (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) طه ، وقال (وكلَّ شيء أحصيناه كتاباً) النبأ ، وقال صلى الله عليه وسلم : (قدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه البخاري ، وأحمد ، والترمذي ، ورواه مسلم بلفظ (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء) ، وقال صلى الله عليه وسلم : (إن أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) رواه أحمد ، ورواه أبو داود السجستاني والطيالسي وغيرهم بنحوه ، فمرجع القدر إلى علم الله سبحانه .

ثانياً ــ القضاء معناه : (وجود الأشياء على حسب ماقدره الله سبحانه) ، قال تعالى (فقضاهن سبع سموات في يومين) فصلت/ ١٢ أي خلقهن ، فالقضاء يتفرع عن صفتي القدرة والإرادة لله تعالى ، والقضاء والقدر متلازمان لأن القدر بمنزلة الأساس للقضاء ، قال تعالى (والذي قدر فهدى) الأعلى ، أي قدر المقادير سبحانه بمعنى عَلِمَها وكَتَبَها وبعد ذلك هدى الخلائق إليها ، ابن تيمية في التفسير جـ/ ٣ .

وتوضيحاً لذلك إليك المثال التالي [١]: (المهندس يضع مخططاً للبناء على الورق ، فَتَعَلَّقُ علم المهندس بما

(١) سوف يرد معنا في ثنايا هذا الكتيب أمثلة كثيرة ، لأن موضوع القدر يصعب فهمه بدون تمثيل ، وضَرْبُ الأمثلة أسلوب في البيان استخدمه الفاطر الحكيم سبحانه في كتابه الكريم ، واستعمله رسوله صلى الله عليه وسلم لتقديم المعقول في صورة المحسوس ، لتقريبه من أفهام البشر ، وليسهل عليهم إدراك الفكرة ، ولتقوم عليهم الحجة ، وقد ضرب سبحانه مثلاً لنوره من المشكاة والمصباح ، ولله الجليل دائماً وأبداً المثل الأعلى ، وهو المنزّه عن المِثْل والمثيل ، والشِّبْه والشبيه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى / ١١ .

سيكون عليه البناء في المستقبل يقابل القدر ، ثم يأتي المقاول وينفذ البناء على الأرض كما خططه المهندس ، وهذا يقابل القضاء) ولله المثل الأعلى .

وقد أجمع المسلمون سلفاً وخلفاً على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره ، وعلى أن من ينكره كافر ، لأنه يكذب النصوص القطعية بثبوته ، ولأنه اعتقد عدم علم الله بما يكون في خلقه ، وعدم قدرته على تنفيذ ماأراد ، وهذا مستحيل على الله جل شأنه .

ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أن الإيمان بالقضاء والقدر يجعل الإنسان مجبَراً مسيَّراً في كل شيء كما قال الجبرية ، ولكن الله سبحانه بحكم ألوهيته لابد أن يكون عالماً بما سيفعله عباده ، وإلا كان ذلك نقصاً في صفاته سبحانه ، ولابد من وقوع الأفعال مطابقة لما علمه الله تعالى لأنها لو وقعت مخالفة لما علمه الله لانقلب العلم جهلاً [1].تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ومثال ذلك : (لو افترضنا أن رجلاً له خادم ، وقد

---

(١) فإرادة الله تعالى ـ التي يتفرع عنها وقوع الأشياء مطابقاً لما علمه =

أوتي الرجل فِراسةً صحيحة ، فكتب في مذكراته : إن الخادم سارق ، وسيسرق كثيراً من مالي ، ثم تبين مع الأيام صدق ظن الرجل وسرق الخادم فعلاً ، فهل يعتبر السيد الذي قدر بأن خادمه سيسرق وكتب ذلك في مذكراته بأنه هو الذي أجبر الخادم على السرقة ؟ ، وإذا أراد السيد أن يعاقب الخادم على سرقته هل يستطيع الخادم أن يقول لسيده أنت الذي أجبرتني على السرقة ؟) قطعاً . لا ، فعِلمُ السيد ، أو ظَنُّه ، وكتابته في مذكراته بأن الخادم سيسرق يقابل القدر الذي هو علم الله سبحانه وكتابته ، ووقوع السرقة من الخادم يقابل القضاء .

مثال آخر : (تقدم الطلاب إلى اختبار شهادة الكفاءة فقال مدرس خبير بأحوال طلابه للمدير : فلان سينجح ، وفلان

= الله سبحانه مُسْبَقاً من حال خلقه ـ كاشفة لما علمه الله ، ومظهرة لصدق علمه سبحانه بما كان ويكون إلى قيام الساعة ، إذن : إرادته تبارك وتعالى : كاشفة ، مظهرة ، مبدية ، وليست (مجبرة) ، كما قال سبحانه : (كلَّ يومٍ هو في شأن) أي : (يُبْدِيه ولا يبتدئُه) .

سيرسب ، وكتب ذلك في دفتر تحضيره ، وبعد الامتحان تبين ذلك حقاً ، فلان نجح ، والآخر رسب ، فهل يكون المدرس هو الذي أجبر هذا على النجاح وذاك على الرسوب ؟ قطعاً . لا ، وإذا سئل الراسب لم رسبت ؟ هل يستطيع أن يقول : المدرس هو الذي أجبرني على الرسوب ؟ قطعاً لا ، فَعِلْمُ المدرس وكتابته يقابل القدر ، ووقوع الرسوب للطالب يقابل القضاء .

وبهذه الأمثلة يتضح لك يا أخي سقوط زعم الجبريين ، وبطلان اعتقادهم بأن الإنسان مجبر ومسير من قبل الله في كل شيء وهو مسلوب الإرادة ، وقد تسرب هذا الاعتقاد إلى المسلمين من الأمم الكافرة ، كما كان المشركون وأعداء الرسل قد اتخذوه عذراً لهم ، وتبريراً لإصرارهم على كفرهم فقالوا كما قص القرآن الكريم ذلك وأبطله بشدة : (سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) . الأنعام /١٤٨ .

ومن الأدلة على بطلان زعم الجبريين ، وعلى أن الإنسان حر مختار مسئول مايلي :

(١) ـ إرسال الرسل ، قال الله تعالى : (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) النساء / ١٦٥ ، ما هي مهمة الرسل ؟ مهمتهم التبشير بثواب الله ، والإنذار بعقابه ، وإرشاد الناس ليتركوا الباطل إلى الحق حتى لا يبقى لهم احتجاج على الله يوم الحساب ، فإذا كان البشر مجبرين على الشر والمعصية فلا فائدة إذن من إرشادهم لأنهم مجبرون ، ويكون إرسال الرسل إليهم لهواً وعبثاً لا فائدة منه ، والله سبحانه منزه عن العبث ، فإذن لابد من أن يكون لإرسال الرسل فائدة ، وهي توجيه الناس إلى الخير ، والناس مخيَّرون يمكنهم ترك الشر إلى الخير إذا قُيِّض لهم من يدلهم عليه ، ولذا يقول الله تعالى : (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) الشمس ، يُسند سبحانه التزكية والتطهير إلى الإنسان نفسه ، وهكذا نرى أن القول بالجبر يجرُّ الإنسان إلى نسبة العبث إلى الله في

إرسال الرسل إلى البشر .

(٢) ـ القول بالجبر يجر الإنسان إلى الكفر ، إذ أنه ينسب الظلم إلى الله ، لأنه سبحانه تَوَعَّد العصاة بالنار ، فإذا اعتقدنا أنه تعالى أجبرهم على المعصية ثم عاقبهم عليها ، نكون قد نسبنا الظلم إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهو سبحانه يقول عن نفسه : (وما ربك بظلام للعبيد) .

(٣) ـ الإنسان حر مختار وليس مجبراً بدليل (العقل الصحيح) الذي وهبه الله للإنسان ليتمكن به من التعرف على الحق وتمييزه عن الباطل على حسب ما وضحته رسل الله وبيَّنَتْه وَهَدَتْ إليه قال تعالى (وهديناه النجدين) ، أي دلَّه ربه وعرَّفَه طريقي الخير والشر بما آتاه من عقل وفكر يمكنه بهما التمييز بين الحق الذي جاءت به رسل الله والباطل الذي يتمادى فيه أعداء الله [1] ، ثم بعد ذلك هو حر يختار أي

(١) وفي هذا المعنى قال بعضهم شعراً :

وكيف بلا عقل يكون تديُّنٌ — إذن كلِّفوا المجنون والطفل والعَيْرا =

الطريقين يشاء ، وهو مسئول عن اختياره هذا ، قال تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) . الكهف / ٢٩ .

(٤) ـ دليل الاستشارة ، فإذا أردت النزهة مع أصدقائك استشرتهم في أفضل الأمكنة ، ثم تختارون مايعجبكم ، فلو كنت مجبراً لتحركت فوراً إلى مكان النزهة دون اختيار منك ، ولا استشارة لزملائك ، ولكنك حر مختار في تصرفك بين الخير والشر ، والله سبحانه قد يسر كلاً منهما للإنسان وقال (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى فسنيسره

= وكذلك كان فيما قاله العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه للمنذر بن ساوى العَبْدي ملك البحرين حين قدم عليه يدعوه إلى الإسلام قوله له : (هذا النبي الأمي لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أوليته زاد في عفوه ، أو نقص من عقابه ، إذ كل ذلك منه على أمنيّة أهل العقل وفكر أهل النظر) ، فأسلم المنذر . ذكره السهيلي في الروض الأنُف ، جـ ٧ ، ص (٥٢٠) ، فلو لم يكن للعقل دور في الاختيار لكُلّف المجنون ، والطفل من ساعة ولادته ، أما إذا أفاق المجنون ، ورشَدَ الغلام خوطبا بالتكليف ، وتوجهت إليهما المسئولية لتوفُّر العقل القادر على الاختيار .

لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) سورة الليل .

(٥) ـ إن عقيدة الجبر تطويح بالوحي الإلهي كله ، وتزييف للنشاط الإنساني من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، بل هي تكذيب لله ورسله قاطبة ، وتخريب لدين الله ودنيا الناس ، قال تعالى : (من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) الروم/٤٤ ، وقال سبحانه : (هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون) المطففين ، وقال سبحانه : (إنما تُجزَوْن ماكنتم تعملون) التحريم /٧ ، وقال سبحانه : (ونودُوا أن تلكم الجنةُ أورثتموها بما كنتم تعملون) الأعراف/٤٣ ، وهكذا نرى الربط المتكرر بين اختيار الإنسان لعمله والجزاء الذي سيلقاه على اختياره وعمله ، قال سبحانه : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى) النجم/٣٩ ـ ٤١ ، فلا احتجاج بقدر ، ولا اعتذار بجبر ، إذ لو صح الاحتجاج بالقدر الجبري ، وتعطيل الاختيار البشري لاحتجَّ به كل مجرم لتبرير جريمته ،

فتتعطل حدود الشرع ، ويفسد نظام الحياة .

وهذا الكلام أيها الإخوة لا يعني أن الإنسان حر مختار في كل شيء ، بل الإنسان مسيَّرٌ أحياناً في بعض الأمور ، ومخيَّرٌ في بعضها الآخر .

فإذن أمور الإنسان على نوعين : النوع الأول يكون الإنسان فيه مجبراً مسيراً ، فمثلاً هو يمرض بلا اختيار منه ، ويشيب ويهرم بلا اختيار منه ، ووقوع حجر على إنسان وهو في طريقه ، أو وقوعه في بئر ، أمور تجري بلا اختيار منه ، واستغراق الإنسان في النوم ، وتحرك أعضائه الداخلية في بطنه ، ونمو شعره ، وظفره ، وجسمه ، كلها أمور تجري والإنسان فيها مجبر مسير ولا اختيار له فيها ، وهذه الأمور المسير فيها لا يحاسبه الله تعالى عليها ، لأنها وقعت بمحض إرادته تعالى ، وفيها يقول تعالى : (وربك يخلق مايشاء ويختار ، ماكان لهم الخِيَرَةُ سبحان الله وتعالى عما يشركون) القصص /٦٨ .

النوع الثاني من تصرفات الإنسان يكون فيها مخيراً ، لأن

الله منح الإنسان العقل الذي فيه القدرة على الاختيار ، والحرية في الاختيار ، فهو يختار إما الخير أو الشر ، فمن سمع صوت المؤذن ينادي : (حي على الصلاة) ، وفي نفس الوقت شاهد السينما مفتّحة الأبواب ، وينادي صاحبها الناس بالدخول إليها ، فوقف يوازن بين الطريقين ، ثم اختار طريق السينما ، فيكون قد اختاره بمحض حريته واختياره [1]، فهو مسئول عن اختياره ، والله يقول : (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل [2]) ، يونس /١٠٨ .

وهكذا نرى أن الإنسان في قسم من أموره هو مسير فيها ، مجبر عليها ، وقسم آخر من أموره هو حر مختار فيها ،

---

(١) هذا النوع من التصرفات يشعر الإنسان عندما يؤديها بيقظة عقله ، وحرية إرادته ، ورقابة ضميره ، واستقلال اختياره لما يباشره من عمل .

(٢) وهكذا ينسب الله سبحانه اختيار الهداية أو الضلال للإنسان نفسه ، ولو كان الإنسان مجبراً ويسير بغير إرادة ما نسب الله سبحانه ذلك للإنسان ، ولكانت هذه الآية الكريمة وأمثالها عبثاً ، والله سبحانه منزّه عن العبث .

وإذا أردنا أن نفهم ذلك علينا أن نحلل الإنسان نفسه إلى عناصره الأولى ، فنقول : لو نظرنا في مخلوقات الله سبحانه لوجدنا (الجماد) أدنى درجة في المخلوقات ، ويمتاز بخاصة (التحيز تحت ضغط الجاذبية)، وفوقه (النبات) ، فهو متحيزٌ ، ويمتاز على الجماد (بخاصة النمو) ، وفوقهما (الحيوان) فهو إلى جانب تحيُّزه تحت ضغط الجاذبية ، ونموِّه ، يمتاز عليهما بخاصة ثالثة هي (خاصة الحركة) ، وفوق الحيوان (الإنسان) وهو أرقى المخلوقات درجة ، فهو متحيزٌ ، وينمو ، ويتحرك ، ويمتاز على سائر مخلوقات الله بميزة أخرى خاصة به ، وهي (خاصة التفكير[1]) .

فإذا أردنا أن نبحث عن الإنسان أمسيَّرٌ هو أم مخيَّرٌ ؟ علينا أن نتعرف على مايحتويه الإنسان من خصائص الأنواع الأخرى من الخلق ، فالإنسان فيه جمادية لأنه جِرمٌ متحيزٌ تحت ضغط الجاذبية بلا اختيار منه ، وفيه نباتية لأنه ينمو

(١) هذا التقسيم للمخلوقات وتطبيقاته على الإنسان من محاضرة للشيخ الكبير الداعية المعروف محمد متولي الشعراوي .

جسمه بلا اختيار منه ، وكذا وكافة أجهزة بدنه الداخلية ، تعمل ، وتتحرك ، وهو لاهٍ ، أو نائم ، بلا اختيار منه ، ولا إرادة ، والحركة هي الخاصة الحيوانية .

فإذن نقول : (إن أمور الإنسان في حدود مافيه من جمادية ، ونباتية ، وحيوانية ، هو مسيّرٌ فيها مجْبَرٌ عليها ، ولا اختيار له أبداً ، لكن الخاصة التي يمتاز بها الإنسان هي (العقل) ، ومهمة العقل (التفكير والاختيار) : أأفْعَلُ هذا أم هذا ؟ ، وهنا منطقة (الاختيار ، والحرية ، والمسئولية) .

فمن سأل : هل الإنسان مسير أم مخير ؟ فنقول له : حلّلِ الإنسان إلى عناصره تجد الجواب ، فستجد (جمادية) هو مسير فيها ، فهو لا يتحكم بنفسه ألا يقع إن ألقي به في الجو ، وسوف تجد فيه (نباتية) هو مسير فيها أيضاً ، فهو ينمو بدنه ، وينمو شعره ، وظفره ، ويشيب ويهرم بلا اختيار منه ، وسوف تجد (حيوانية) هو مسير في قوانينها فجهازه الهضمي والتنفسي ، ودورته الدموية ، وغيرها تعمل ، وتتحرك بلا إرادة منه ولا اختيار ولو كان نائماً ،

أو لاهياً ، أو بحال طفولة أو جنون ، أو كان جنيناً ، فهو في هذه الأمور مسير لأنها تجري بدون اختياره ، وسوف تجد في الإنسان أخيراً (منطقة فكر وعقل واختيار) ، فأفعاله التي يفعلها الإنسان بناء على اختياره وتفكيره فهو فيها حر مختار ، وتتوجه المسئولية والحساب إليه بناء على اختياره هذا ، ولذلك من كانت أداة الاختيار ساقطة عنده كالمجنون لايسأل ولا يحاسب ، إنما المسئولية والحساب على تصرفات الإنسان الدائرة في منطقة الاختيار فقط ، وأداة الاختيار ساقطة عند المجنون فلذلك لا يحاسب ، فلو كان الإنسان مجبراً من قبل الله تعالى في كل شيء ، ولا أثر لعقله في الاختيار لحاسب الله المجنون على تصرفاته ، ولكلف الله سبحانه الطفل الصغير من ساعة ولادته ، ولكن لا ، (وما ربك بظلاّم للعبيد) ، إنما يؤخره حتى يبلغ سن الرشد ، وينضَج عقله وتكمل عنده منطقة الاختيار ، وكذا إذا أفاق المجنون ، فعندها تتوجه المسئولية إليهما ، فليس الإنسان إذن مسيراً في كل شيء ، إنما هو مسير في شيء ، ومخير في شيء آخر .

وعلى هذا الضوء يمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من الأفعال : فعل يقع بي ، وفعل يقع علي ، وهذان مسير فيهما الإنسان ، وفعل يقع مني وتلك هي (منطقة الاختيار) .

وإن القوم الذين أوجدوا الخلاف هل الإنسان مسير أم مخير ؟ هم (الجبرية ، والمعتزلة) فكل فئة منهما تتعصب لصفة من صفات الله .

فالمعتزلة يتمسكون بصفة (العدل) لله ، حيث يقولون : كل أفعال الإنسان تجري باختياره دون مشيئة الله ، فالعبد عندهم يخلق أفعال نفسه ، وعندما يحاسبه ربه على أفعاله يحاسبه بالعدل لأنه يستحيل على الله أن يكون ظالماً ، ولكن هذا القول يجر إلى الاعتقاد بأن أموراً تجري في الكون بغير إرادة الله وقدرته ، وأنّها خارجة عن مشيئته سبحانه .

وهنا يتعصب آخرون لصفة (القدرة ، والعلم ، والإرادة لله سبحانه) ، فيقولون : كل شيء من خلق الله ومجبَرٌ على أن يسير بمشيئة الله ، وهو مسلوب الإرادة والاختيار ،

وهؤلاء هم القدرية الغلاة ، وسُمُّوا بذلك لغلوِّهم في إثبات القدر ، وغلوِّهم في إثبات صفات العلم والقدرة والإرادة لله تعالى ، وهؤلاء يُسَمَّوْن الجبرية حيث ينفون إرادة العبد ومشيئته واختياره ، وقالوا : إن العبد مجبَر على جميع أفعاله فهو كالورقة تحركها الرياح ليس له تصرف في نفسه ، وقد أوصلهم تفكيرهم هذا في نهاية الشوط إلى أن يعتقدوا أن لا مسئولية ولا حساب على الإنسان ، وهم قد أسقطوا المسئولية والحساب عن الإنسان لأنهم اعتبروه مجبَراً على أفعاله ، فهو إذن مظلوم ـ في زعمهم ـ إن عُذِّب على معصية قد أُجبِر عليها ، حتى قال قائلهم :

ماحيلة العبد والأقدار جارية
عليه في كل حين أيها الرائي
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

فَجَرَّهم هذا الزعم الفاسد إلى إسقاط المسئولية والحساب عن الإنسان ، فهدموا الدين ومرقوا من الإسلام كما يمرق السهم

من الرميّة .

أما القدرية النفاة وسُمُّوا بذلك لأنهم ينفون القدر ، وينفون علم الله في أفعال العبد ، فهم يقولون : إن العبد خلقه الله ، وهو ـ العبد ـ يخلق أفعال نفسه ، فهم كالمعتزلة في ذلك ، فإذا وقع الفعل من العبد علمه الله ، فينكرون علم الله القديم ، ويُرَدُّ عليهم بقوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) الصافات /٩٦ ، و (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) الطلاق/١٢، و(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) الحديد/ ٢٢ ، ولما روى أبو داود عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، فقال : يارب وماذا أكتب ؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، يابني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من مات على غير ذلك فليس مني) ، وفي رواية لأحمد (إن أول ماخلق الله القلم

فقال اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) ، ولما ورد في الصحيحين من سؤال الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنعمل في شيء قُضي وفُرغ منه أم في أمر سيكون ؟ قال : بل في أمر فُرغ منه ، قالوا : ففيم العمل ؟ قال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ، وهؤلاء هم الذين سمّاهم الصادق صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة [١].

فجاء أهل السنة والجماعة ليقربوا بين الطرفين المتطرفين فقالوا : هناك فرق بين خَلْق فعل معين ، وإجبار الإنسان عليه ، وبين خَلْق الطاقة للفعل في الإنسان ، فالله تعالى مثلاً خلق ليَ اليد وما فيها من أعصاب وشرايين ودماء

(١) ولذا فإن أهل السنة والجماعة أثبتوا أن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة ، وأن أفعالهم تنسب إليهم حقيقة ، وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم قال تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) ، وأثبتوا للعبد مشيئة واختياراً تابعين لمشيئة الله ، قال سبحانه (لمن شاء منكم أن يستقيم ، وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) التكوير .

جارية ، وطاقة على الحركة ، وقدرة على أداء صور متعددة من الأفعال ، لكن هذه الطاقة والقدرة اللتين أمدَّني الله بهما على فعل صور متعددة من الأعمال ليس معنى هذا أنه أجبرني على كتابة أمر معين مثلاً ، بل إنه سبحانه خلق هذه الآلة صالحة وقادرة لأن تمتد بصدقة ، أو إيذاء ، أو كتابة ، وصور هذه الأفعال مخلوقة لله ، قال تعالى (والله خلقكم وماتعملون) الصافات/٩٦ ، والعبد هو الذي يختار استخدام آلته وطاقته ـ وهما من خلق الله أيضاً ـ في أمر يعزم هو عليه ويختاره من هذه الأمور، فإن اختار هذا فبقدر الله ، وإن اختار ذلك فبقدر الله ومشيئته التي لولاها ما قَدَرَ العبد أن يفعل شيئاً ، قال سبحانه (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) ، ولذا قال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة رضي الله عنهما عندما قال له : (أفراراً من قدر الله ياأمير المؤمنين ؟) قال له : (نفرٌ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن هبطتَ وادياً له عُدْوتان إحداهما خِصْبة ، والأخرى جَدْبة ، ألستَ إن رعيْتَ الخصبة رعيتَها

بقَدَر الله ، وإن رعيْتَ الجدْبة رعيتَها بقدر الله ؟) أخرجه الشيخان .

وهكذا نرى أن الله تعالى أَمَدَّ الإنسان بأسباب الفعل من آلة وطاقة وقدرة ، والإنسان هو الذي يستعمل هذه الآلة والطاقة ، فيكتب باختياره ما يشاء ، فقولنا : (كل شيء بمشيئة الله) صحيح ، بمعنى أن الله خلق الآلة والطاقة اللتين لولاهما ما وجد الفعل ، وقولنا : (الله تعالى عادل) صحيح ، لأنه سبحانه لم يحاسب الإنسان إلا على مااختاره بنفسه ، وَوَجَّهَ طاقته إليه ، وما خطته يده .

فإذن مذهب أهل السنة والجماعة وسط حكيم قدس الله جل جلاله في كافة صفاته المتعلقة بالموضوع ، فالله سبحانه عادل ، وقدير ، وعليم ، ويفعل مايريد .

ولنعد إلى مثال الخادم الذي ذكر في أول الكتاب (ص ١٨) حيث عرف سيده أن خادمه سارق ، وسيسرق من ماله كثيراً ، ولما اتهمه بالسرقة اعترض عليه إنسان آخر ، وقال : إنه لا يسرق ، فقال السيد لهذا الرجل سوف ترى ،

ونادى السيدُ الخادمَ وأعطاه مبلغاً من المال ليشتري شيئاً من السوق ، ولم يضع عليه رقيباً ، وأعطاه الحرية ليظهر كوامن نفسه ، ولما ذهب الخادم إلى السوق اشترى وسرق فعلاً مبلغاً من المال مستغلاً الفرصة التي منحه إياها سيده مدعياً أنه اشترى السلعة بمائة ، فلما سئل البائع قال : إنه اشتراها مني بخمسين ، فتحقق تقدير سيده ، فهل يكون سيده هو الذي أجبره على السرقة ؟ لا . بل إن سيده هيّأ له إمكانية الفعل من مال مُغرٍ ، وإذْنٍ بالذهاب إلى السوق وأعطاه حرية التصرف بلا رقيب عليه ، فأقدم الخادم على الفعل باختياره ، فتعلقت إرادة السيد بفعل الخادم بأن هيأ له الظرف الملائم للسرقة ، فسرق الخادم باختياره (١) ، فإذا حاسبه سيده على سرقته

---

(١) الخادم أقدم على السرقة باختياره لكن بمشيئة سيده وإرادته حيث هيّأ السيد له الطاقة والإمكانية للفعل وعدمه ، ولولا الطاقة والإمكانية التي هيّأها السيد لما قَدَرَ العبد أن يفعل شيئاً ، وعلى ضوء هذا المثال نفهم قوله تعالى(لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) .

هل يعتبر السيد ظالماً ؟ قطعاً لا ، وهذا ينطبق على صفة الإرادة لله ، (ولله المثل الأعلى) فالله تعالى علم ما سيفعل عبده ، وعِلْمُه تعالى يقابله ظَنُّ السيد أن خادمه سيسرق ، والله تعالى تعلقت إرادته بالفعل بأن خلق الآلة ، وأَمَدَّ بالطاقة وهذا يقابله ما هيَّأ السيد من الظرف المناسب ، والحرية التامة للخادم ، ثم يقدم العبد على المعصية باختياره كما يقدم الخادم على السرقة باختياره ، فهل إذا حاسبه الله تعالى يكون ظالماً ؟ قطعاً لا ، كما أن السيد إذا عاقب الخادم على سرقته لا يكون ظالماً (ولله المثل الأعلى) .

الله سبحانه خلق القدرة للعبد ، وهي تمثّل مشيئته ، وهي جزء من كيانه الذي خلقه الله ، فإذا فعل الخير أو الشر فبالقوة التي خلقها الله فيه ، فالفاعل وقدرته ومجال الفعل كلها مخلوقات لله (والله خلقكم وماتعملون) ، فهي إذن تحت قدرة الله ومشيئته (وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) ، فليس للعبد إلا توجيه قدرته المسبوقة بتصميمه لاكتساب الفعل ، وعندها يسأل عما كسب (كل نفس بما كسبت رهينة) .

وهكذا نكون قد قدسنا الله جل جلاله في صفاته كلها ، ولا يصح أن يُبْحَث في الموضوع على أن نثبت لله بعض الصفات وننفي عنه بعضها الآخر ، بل له سبحانه كل صفات الكمال ، فيجب أن يكون كل فعل له متمشياً مع كل الصفات ، فنقول : كل شيء يجري بعلم الله ، وقدرته ، وإرادته ومشيئته ، أي أنه تعالى أمد بالطاقة ، وهيأ الأسباب والإمكانيات للفعل وعدمه ، والعبد لم يخلق الفعل إنما له فقط اختيار أحد الطريقين اللذين خلق الله الآلة صالحة لهما ، وما دامت الآلة قد خلقها الله صالحة لفعل هذا ، وصالحة لفعل ذاك ، فإن فعلت هذا فهو فعل بمشيئة الله ، وإن فعلت ذاك فهو فعل بمشيئة الله أيضاً ، وعلى ضوء هذا نفهم قوله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم ، وماتشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) التكوير . فأفعال العبد تنسب إليه حقيقة لأنه فعلها باختياره ومشيئته التي تحوطها مشيئة الله تعالى ، كمن بيده جهاز (الراديو) وهو صالح لالتقاط عدة محطات ، فهو باختياره يوجه طاقته إلى محطة كذا إن شاء ، أو إلى

محطة كذا إن شاء ، وهنا نكرر قول عمر بن الخطاب لأبي عبيدة رضي الله عنهما عندما قال له : (أفراراً من قَدَرِ الله ياأمير المؤمنين ؟) فقال له : (نَفِرٌ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن هبطت وادياً له عُدْوتان إحداهما خِصْبة والأخرى جَدْبة أَلَسْتَ إن رَعَيْتَ الخِصْبة رعيتَها بقدر الله ، وإن رَعَيْتَ الجَدْبة رعيتها بقدر الله ؟) [1]، وهكذا نرى فِعْلَ الإنسان في التقاط واختيار المحطة التي يريدها هو من كَسْبِهِ حقيقة وبمشيئته واختياره ، ولكنه في الحقيقة والواقع لا يقدر على التقاط أية محطة لولا الجهاز الذي صُمِّمَ قادراً على التقاط المحطات ، (وكذا العبد لايقدر على فعل شيء لولا الآلة والطاقة اللتان زوّده الله بهما) ، فمشيئة العبد محوطة بمشيئة الخالق القادر سبحانه ، وتابعة لها ، ولكن هل يشاء الله ويرضى

---

(١) أخرجه الشيخان ، وقد روى الإمام أحمد الحديث الذي فيه أنه صلى الله عليه وسلم سئل :(فعلى ماذا نعمل ؟ قال على مواقع القدر) ، قال الهيثمي : رجاله ثقات ، ورواه ابن حِبّان ، والحاكم في مستدركه وقال فيه (على موافقة القدر) .

لعبده فعل الشر ؟ نقول ـ والله أعلم ـ : مشيئة الله ـ بمعنى تمكين الله عبدَه من فعل الخير أو الشر ـ هذا أمر مؤكد ،أما الرضا من الله عن الفعل فهو أمر آخر ، فمشيئة الله لاتعني رضا الله عن عبده إذا فعل الشر ، قال سبحانه (ولايرضى لعباده الكفر) الزمر/٧ ، الله سبحانه عندما مكّن عبده من فعل الخير أو الشر لم يأمره بفعل الشر ، قال تعالى (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) الأعراف/٢٨ ، بل العبد هو الذي يختار فعله وهو مسئول عن اختياره ومحاسب عليه ، فإن اختار فعل الخير أثيب ، وإن اختار فعل الشر عوقب .

فاللسان خلقه الله تعالى صالحاً لقولك (لاإله إلا الله) ، وصالحاً لقولك (لا إله والحياة مادة) ، ولكن ترجيح إحداهما على الأخرى ، واختيار إحدى الكلمتين عَمَلُ من هذا؟ قطعاً هو عمل الإنسان نفسه ، وثواب الإنسان وعقابه مترتب على اختياره ومباشرته للفعل ، كَمَنِ اخترع بندقية وثبّتها على مِنصب التسديد واخترع لها بضع طلقات ووضعها بجانبها حتى إذا صارت صالحة للإطلاق اعترضه

أمر مفاجئ فدخل غرفة أخرى ليقضيها ويعود سريعاً وهنا استغل فرصة غيابه شخص زائر فأدرك أن الطاقة والقدرة والفرصة والإمكانية مهيأة لقتل هذا الإنسان الذي أمامه ، فحشاها بالطلقات وضغط بإصبعه على الزناد فقتله ، فمن القاتل الذي يحاسبه القانون ؟ قطعاً يحاسب الذي باشر القتل بضغطه على الزناد باختياره ، وعزمه ، وتصميمه على القتل ، ولذا فالقانون لا يعتبر الجريمة كاملة إلا إذا توفر فيها العنصر المعنوي وهو العزم ، والتصميم ، واختيار القتل إلى جانب العنصر المادي .

وهكذا فالشرع الإلهي الحنيف يقول : إذا أطلق إنسان طلقة على طائر فأصاب إنساناً خطأً فقتله (هذا قتل خطأ) لايعاقب مقترفه بالقصاص كالقتل العمد لتجرده عن العنصر المعنوي للجريمة وهو العزم ، والإصرار ، واختيار القتل ، وكذا يقول الشرع الإسلامي الحنيف إذا وجه إنسان لآخر ضربة بآلة لا تقتل حسب العادة فَقُتِلَ المضروبُ بها ، يقول : (هذا قتل شِبْهُ عمد) لعدم اكتمال العنصر المعنوي للجريمة بالعزم ،

والتصميم ، والاختيار الكامل للقتل ، وهذا العنصر الاختياري في الإنسان هو نفسه مناط الثواب والعقاب يوم الحساب أمام المحكمة الإلهية العادلة في يوم (تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) الحج/ ٢ .

فإذن الإنسان حر مختار ومسئول عن اختياره وعمّا وَجَّهَ إليه طاقته ـ التي هيأها الله له ـ من عمل ، هذا وهناك بعض الاعتراضات التي قد يوجهها بعض الناس منها :

أولاً : يأتي من يعترض ويقول : إن الله تعالى يقول (لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً) الرعد/ ٣١ ، ويريد أن يفهم منها أن الله يخلق الهداية لمن يشاء بإرادته ويسيره فيها ، فنقول له نعم ، لو شاء الله لحدد للناس طريقاً واحداً هو طريق الهداية ، وأرغمهم وساقهم إلى الإيمان والهداية سوقاً ، لكنه سبحانه لم يشأ أن تكون الأمور كذلك ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

(لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً)[1] الرعد/ ٣١ ، وإليك مثالاً يوضح الفكرة :

(لو شـــاء مهندس جهاز الاستقبال (الراديو) أن يصنعه بحيث لا يلتقط إلا على قناة واحدة ـ كما هو الحال في الصين الشيوعية ، حيث ترى في كل بيت جهاز (راديو) مصمماً بحيث لا يلتقط إلا محطة بلاده فقط ـ لَقَدَرَ ، وعندئذ لا تستطيع أن تجعله يلتقط محطة غيرها) ، وكذا الخالق سبحانه لو شاء لساق الناس في طريق الهداية وحده سوقاً ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ، إذ هل يستحق الثواب من كان مُرْغَماً على الطاعة ؟ وهل يجوز عقاب من كان مُجْبَراً على المعصية ؟ قطعاً لا ، ولذا جعل الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بين واقعين يتجاذبانه ، فمن يختار الحق يظهر فضله على من يختار الباطل ويستحق نوال الثواب من الله لأنه

---

(١) ومثله قوله تعالى (فلله الحجة البالغة ، فلوشاء لهداكم أجمعين) الأنعام/١٤٩ ، وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) السجدة/١٣ .

ترك الشــهوات والمعاصي مع قدرته على اختيارها[1] ، ومن هنا كان المؤمن الذي يختار الاستقامة دون الهوى أفضل من عوامٌ الملائكة ، لأن الملك ليس واقعاً بين أمرين يتجاذبانه ، بل هو مسير في طريق الهداية ، ومخلوق للطاعة فقط .

ثانياً : وقد يعترض آخر فيقول : إن الله تعالى يقول :

---

(١) لم يجعل الله سبحانه الخلق ملائكة مجردين من إرادة الخير أو الشر ، بل جعل سبحانه عبده تتنازعه قوتان : فمن عمل على تغليب قوة الخير والهدى كان ذلك بسعيه وكَدِّه فاستحق المثوبة ، ومن غلّب قوة الشر والضلال كان كذلك بكدِّه وسعيه فاستحق العقاب على عمله ، قال تعالى (ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ...) الانشقاق ، وقال تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) الإسراء/١٩ ، وهكذا جعل الله سبحانه خَلْقَه على نموذج فيه صلاحية العِوَج والاستقامة ، وأدخلهم في مسابقة عامة ، أو اختبار حر ، وسوف تمتلئ النار بالساقطين ، وتمتلئ الجنة بالناجحين ، وهو سبحانه يعرف مُسْبَقاً ومن الأزل ماسيكون ، لأن الخالق سبحانه حاشاه أن لا يعلم كل شيء من أحوال خلقه ، قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ؟ تبارك .

(كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء)[1] المدثر / ٣١ ، ويريد أن يفهم منها أيضاً أن الله تعالى هو الذي يسيِّرُ في طريق الهداية ، أو طريق الضلالة ، فنقول له : بعدما عرفت مما تقدم أن الله تعالى لو شاء لخَلَقَ الهداية وحدَّدَها وَحْدَها طريقاً للناس لا ثاني له لاستطاع أن يفعل ذلك ، وعندها لايستطيع أحد إلا السير مجبراً فيها ، ولكنه سبحانه ـ كما تقدم ـ لم يفعل ذلك بل جعل الإنسان بين واقعين يتجاذبانه، فمن اختار بمحض اختياره طريق الهداية كان ذلك سبباً لرضا الله عليه ، وقبوله ، والترحيب به ، ومن سلك طريق الضلالة بمحض اختياره كان ذلك سبباً لسخط الله عليه ، وتركه يتخبط في عشواء ضلالته .

وبناء عليه نقول لهذا المعترض يجب أن نأخذ القرآن كَكُلٍ جملةً واحدة ولا يجوز أن نأخذ بعضه ونترك بعضه ، فإذا قرأت أيها المعترض قول الله سبحانه (كذلك يضل الله

---

(١) ومثله قوله تعالى (من يهد الله فهو المهتدي) و (ومن يضلل الله فلا هادي له) ٧/١٧٨ ، ١٨٦ .

من يشــاء ويهدي من يشاء) المدثر/ ٣١ ، فاقرأ أيضاً في موضع آخر قوله سبحانه وتعالى الذي يبيِّن فيه من هم الذين يهديهم الله ، والذين لا يهديهم ، إذ يقول سبحانه (والله لا يهدي القوم الكافرين) البقرة/ ٢٦٤ ، ويقول (والله لا يهدي القوم الفاسقين) التوبة/ ٢٤ ، ويقول (والله لا يهدي القوم الظالمين) الصف/ ٧ ، ويقول (إن الله لا يهدي من هو مســرف كذاب) غافر/ ٢٨ ، ويقول سبحانه : (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) الزمر/ ٣ .

وهكذا ترى أن الله سبحانه قَيَّدَ عدم هدايته بالقوم (الكافرين ، والكاذبين ، والفاسقين ، والظالمين) ، فلا يجوز أن نأخذ الآية الأولى على عمومها بل نقيِّدها كما قَيَّدَها القرآن الكريم ، فكُفْرُ الإنسان ، أو كذبه ، أو فسقه ، وفجوره هو سبب حرمانه من هداية الله له [1] قال تعالى :

(١) وهكذا نرى أن العبد عندما اختار لنفسه طريق الكفر والفسوق والعصيان حُرم من هداية الله ، فكُفْره بالله ورَفْضُه الإيمان بالله هو سبب عدم هداية الله له ، فهداية الله إذن متوقفة على تَوَجُّهِ العبد ،=

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) الصف/ ٥ ، وبهذا ندرك أن الإنسان خلقه الله صالحاً بطاقته لاختيار طريق الإيمان أو الكفر ، يستطيع التوجه لتحصيل حرث الآخرة أو التوجه لتحصيل حرث الدنيا ، قال سبحانه (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن

= وقَصْدِه واختياره قال تعالى(سأصرف عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يرو سبيل الرشد لايتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)١٤٦/٧، ولذا فإنه سبحانه يتوجه إلى الكافرين بأسلوب استفهام مُشْبَع بالتوبيخ والإنكار عليهم بنفي استحقاقهم الهداية فيقول (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجا ءهم البينات والله لايهدي القوم الظالمين) آل عمران /٨٦ ، فكيف يستحق هداية الله من تَوَجَّهَ بمحض اختياره ، بل بكامل إصراره وعناده ـ إلى الكفر بالله ، ومعاداة دين الله بعد أن عرف الحق ورأى البينات والهدى على لسان رسول الله ؟ ، لاجرم أنه لايستحقها والله ، فأين الجبر هنا ؟ وأين ظلم الله للعبد كما يزعمون ؟! .

كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب) الشورى/ ٢٠ ، أي من توجه بهمته وقصده يريد العمل للآخرة يقوّيه الله سبحانه ويوفقه ، ويعينه عليه ، ويضاعف له ثواب عمله إلى مايشاء الله ، ومن سعى قاصداً تحصيل أمور الدنيا وليس له هم للآخرة ولا قصد لعملها بل قصده وهمته موجهان للدنيا وسفسافها فاز بالصفقة الخاسرة لأن الله سبحانه يعطيه منها ويمده فيها فيستغرق هذا المخلوق في دناءات الدنيا أكثر فأكثر حتى يبتعد عن الله تعالى ، وهذا ماجنته يداه لأنه هو الذي توجه إلى هذا المصير المشئوم بنفسه وقَصَدَه بهمته وسعيه ، وهنا يستحق حرمان الله له من ثواب الآخرة كما في قوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) الإسراء/١٨ ـ ١٩ ، وبهذا نرى أن عطاء الله سبحانه وإمداده لكل مخلوق على حسب قصده وتوجهه ، وليس عطاء الله ممنوعاً عن أحد من

خلقه قال سبحانه (كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) الإسراء/ ٢٠ ، فإذا سلك سبيل الكفر والمعصية باختياره كان ذلك سبباً لسخط الله عليه ونَبْذِهِ ليتخبط في غياهب ضلالته ويزداد مع الأيام كفراً على كفر ، قال سبحانه (ويذرهم في طغيانهم يعمهون) الأعراف/١٨٦ ، وقال (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) مريم/ ٧٥ ، وإذا وَجَّهَ العبد طاقته في طريق الإيمان والتقوى فرح الله بعبده ، ورحب به أيّما ترحيب ، وَأمدَّهُ بمدَدٍ من عنده ، كما قال سبحانه (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) محمد صلى الله عليه وسلم /١٧ .

مثال ذلك : (إذا وُجِدَ إنسان في بلد غيرِ بلدِه ، وكان يريد التوجُّهَ إلى مكان معين ، وهو لا يعرفه ، فسألَ شرطي المرور عنه ، وبعد أن هداه [1] الشرطي إلى المكان ودلّه على الطريق المؤدي إليه ، قال الرجل السائل للشرطي : أنت لا

(١) بمعنى دلّهُ على الطريق .

تعرف ، وكلامك خطأ ، وَرَدٌ عليه دلالته ، فَممّا لا شك فيه أن الشرطي سيُهْمِلُه ، ويزْدَريهِ ، ويقول له أنت إنسان لا تستحق المساعدة ولا النصيحة ، ويتركه يتخبّطُ في ضياعه وضلاله ، وأما إن قال السائل للشرطي بعد أن دَلَّهُ وهداه : أشكرك على دلالتك وأثنى عليه كثيراً ، ثم طلب منه مزيداً من المساعدة والتوضيح ، فلا شك أن الشرطي سيساعده ، وربما قال له : أنت يبدو أنك رجل طيب ، وتستحق المساعدة والنصيحة ، والطريق محفوفة ببعض المخاطر ، فسوف أركب معك بنفسي حتى أوصلك إلى المكان ، فهذا السائل عندما قَبِلَ دلالة الشرطي ، ونصيحته ، وشَكَرَه انتفع منه ، (ولله المثل الأعلى) .

فمن وجه طاقته في طريق الله وقَبِلَ هدايته ، وقام بشكره وتقواه ، فإنه تعالى سيقبله ويثبّتُه على طريق الهدى ، ويزيده فيه ، كما قال جلّ شأنه (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) محمد صلى الله عليه وسلم /١٧ ، وقال (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ...) مريم/٧٦ ، ويقول

في الحديث القدسي (أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[1] وقال في حديث قدسي آخر (ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ..)[2]، فمن آمن بالله وصدّقه بعد أن دلّه على الطريق فكأن الله تعالى يقول له : أنت عبدي ، وأنت جدير بالهداية ، وأهل لمعونتي ، وسأحلّي الطاعة إليك ، وأزيّنُها في نفسك كما قال سبحانه (ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) الحجرات/٧ ، ويجب هنا أن نُعيرَ اهتماماً خاصاً لآخر الآية : (أولئك هم الراشدون) ، فرُشْدُهم وقبولهم إرشاد الله ، واتباعهم منهج الله شِرْعةً في الحياة هو سبب قبول الله لهم ،

---

(١) متفق عليه ، وفي الحديث القدسي عند مسلم (ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) .

(٢) رواه مسلم .

ودعمهم على طريق الإيمان ، وتسديد خطاهم في طريق الهداية أكثر فأكثر ، وتحبيب الطاعة إليهم ، وعندها تصبح التكاليف أنساً وغذاء لروح الإنسان المؤمن ، فيتعشقها ، ويتذوق حلاوتها ، ولذا يقول سبحانه (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) البقرة/ ٤٥ ، إلا الخاشعين المؤمنين الطائعين أوامر الله ، الذين تعشقوا منهجه ، وذاقوا حلاوة الإيمان ، فلم تعد التكاليف كبيرة شاقة عليهم لأن الله سبحانه حبّبَها إليهم وسهّلها عليهم ، ولذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[١] إنه منتهى الحب الإلهي ، ويقول أيضاً صلى الله عليه وسلم (أرحنا بها يابلال)[٢] أي بالصلاة ، لا يقول أرحنا (منها) ، بل (بها) ، فكأن الذي يظنه البعض تكاليف شاقة هو عين الراحة عند المؤمنين .

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد والبيهقي والنسائي .

(٢) رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد بلفظ (يابلال أقم الصلاة أرحنا بها) .

وأما من وَجَّهَ طاقته في طريق الضلالة ، والفسوق ، والعصيان ، وأعرض عن ذكر الله فَيَمُدُّ له الرحمن في ضلالته مَداً ، ويَذَرُهُ في طغيانه يتخبط ، قال سبحانه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين) الزخرف/٣٦ .

فإذا تفكرتَ فهمت أن إعراض العبد عن ذكر الله ، وتعاميَه عن طريقه ومنهجه كان هو السبب في عدم هداية الله له [١] ، وتسليط الشيطان ليكون قريناً له فيزيده ضلالةً على ضلالة ، فلا يصح أن نفهم أن الله تعالى خلق الهداية

---

(١) جاء في الحديث المتفق عليه (إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ـ وفي رواية مسلم (ليَتَحَرَّى الصدق) ـ حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) البخاري ١٠/٤٢٣ ، مسلم (٢٦٠٧) ، وهكذا نرى أن صِدْق الإنسان وتحرِّيَهُ للصدق يصيِّرُهُ عند الله في زمرة الصادقين ، وأن كَذِب الإنسان وتحريَهُ للكذب يصيِّره عند الله في زمرة الكاذبين ، فإذن : اختيار العبد ، وسلوكه الطريق هو سبب هدايته أو ضلاله .

لإنسان وساقه إليها ، والضلالة لآخر وساقه فيها بلا سبب ، وهكذا نفهم قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) القصص/٥٦ .

أي إنك يامحمد لا تستطيع خلق الهداية خلقاً في نفوس الناس ، وإجبارهم عليها ، ولكن يمكنك أن تدلهم دلالة فقط على طريقها ، ولذا قال سبحانه في موضع آخر (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) الشورى/٥٢ ، أي يامحمد يمكنك أن ترشد وتدل دلالة فقط على الصراط المستقيم ، فالهداية هنا معناها (الدلالة والإرشاد) ، أما قوله سبحانه في الآية الأولى (إنك لا تهدي) ، فمعناه : لا يمكنك يامحمد (صلى الله عليه وسلم) خلق الهداية في النفوس خلقاً ، بل هذا شيء لله وحده ، إذا شاء فعله ، ولكنه سبحانه لم يفعله ، بل جعل الهداية أو الضلالة مقيدة بتَوَجُّهِ الإنسان نفسه ، واختياره الطريق الذي يُعِينُه الله عليه كما مر تفصيله .

ولمزيد من التوضيح أقول : إن قول الله عز وجل

(يضل به كثيراً ، ويهدي به كثيراً) البقرة/٢٦ ، قد يفهم منه إنسان (أن الإضلال والهداية جبْريّان من الله) ، فتأتي الآيات الكريمات لتوضح هذه المشتبهات ، وتضيء هذه المنعطفات ، فتنير السبيل للسالكين ، إذ يقول سبحانه في شأن هذا الكتاب الكريم (هدى للمتقين) البقرة/٢ ، ويقول : (وما يضل به إلا الفاسقين) البقرة /٢٦ ، فيقول المعترض : (وما يدريني ما إذا كنت أنا مكتوباً من المتقين ، أو من الفاسقين) ، فتأتي الآيات الأخرى لتوضح الطريق أكثر فأكثر ، فتقول : (وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون) البقرة/٢٧ ، وتقول في شأن المتقين (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) البقرة . وهكذا نرى كلام الله سبحانه قد أرجع أمور الهداية والإضلال

في النهاية إلى أمور بسيطة مقدورة للإنسان ، أرجعها سبحانه إلى أفعال وتصرفات سهلة مُيَسَّرة للإنسان مستطاعة له أن يفعلها ، أو أن يتركها ، والله سبحانه خلق عبده قادراً على فِعْلِ هذا ، وفِعْلِ هذا ، ويسّره للفعل الذي يختاره لنفسه ، قال سبحانه (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

فمن اختار أن يفعل أفعال المتقين كان هذا الكتاب زيادة له في الهداية وسبباً يدفعه في التقوى أكثر فأكثر .

ومن اختار أن يفعل أفعال الفاسقين ، والكافرين بأن كان لا يسمع لهذا القرآن ، بل ينفر منه كما ذكر سبحانه عن الكافرين قولهم : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه ...) فصلت/٢٦ ، فيكون هذا القرآن زيادة في ضلاله ، فكلما نفر منه وابتعد عنه ابتعد عن الله ، وكلما ذمّه ، وكفر به زاده هذا الكتاب ضلالة إثر ضلالة حتى يُخْتَم له بعمل أهل الضلالة ، فيكون من أهل النار والعياذ بالله ، وهذا معنى

قوله تعالى (وما يضل به إلا الفاسقين) .

وهكذا بهذا المفهوم السليم كلما أمعنّا النظر في أيات الخالق الحكيم تتضح لنا المعاني الكريمة نابعة من مشكاة واحدة ، فقوله جلّ شأنه (وأما ثمودُ فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) سورة فصلت/١٧ ، الهداية هنا بمعنى الدلالة ، أي لما دلّلنا ثمود على الطريق ، والله تعالى هدى كل إنسان أي دلّه على الطريق ، لقوله تعالى (وهديناه النجدين) البلد ، أي الطريقين ، (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) الإنسان/٣ ، فلما دلّلنا ثمود على الطريق وأرسلنا إليهم رسولاً يهديهم اختاروا هم طريق الغَواية ، واستحبُّوه فتركهم ربهم في ضلالتهم يعمهون .

وهكذا نرى قوله تبارك وتعالى (فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) إبراهيم/٤ ، وقوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) البقرة/٢٦ ، مع قوله سبحانه وتعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ينبعان من مشكاة واحدة ، ألا وهي : مشكاة

الملك القدوس نور السموات والأرض (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شي عليم) النور .

صدق الله العظيم ، استغفرك يارب وأتوب إليك

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(ملحق)

(توجيه لبعض الأحاديث التي ظن بعض الباحثين أنها تقرر عقيدة الجبر)

(الحديث الأول) ـ هو الحديث الذي رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه عند الموت : يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، يابني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات على غير هذا فليس مني[1] ، وحديث القلم أخرجه أحمد [2]

(١) انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود الجزء ١٢ رقم الحديث (٤٦٧٥) ص (٤٦٨) .

(٢) وفي رواية أحمد (إن أول ماخلق الله القلم فقال اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) .

وأبو داود ، والترمذي ، أنظر البداية والنهاية المجلد الأول ص ٨ ، دار الفكر .

هذا الحديث الشريف زعم الشيخ محمد الغزالي أنه يقرر عقيدة الجبر في كتابه (السنة بين أهل الحديث وأهل الرأي) [١]، ولكن في الحقيقة هذا الحديث الشريف لا إشكال فيه مع عقيدة القدر عند أهل السنة والجماعة ، ذلك لأن أفعال العبد ـ كما مر معنا في هذا الكتاب ص ٢٩ ـ على أضرب ثلاثة :

(١) ـ فعل وقع عليَّ ، (٢) ـ فعل وقع بي ، وهذان النوعان من الفعل ، الإنسان مسيّر فيهما ، ولا خيار له فيهما مطلقاً ، فهو ينمو شعره وظفره بل جسمه كله بلا خيار منه ، ويتحرك جهاز التنفس ، والهضم ، والدورة الدموية فيه بلا اختيار منه ، (راجع من ص (٢٤ ـ ٢٩) من هذا الكتاب) ، وكذا قد يكون ماشياً في طريق فيُلْقَى عليه حجر من سطح وهو لا يدري ، وهذا أيضاً لا اختيار له فيه .

(١) الفصل الأخير من الكتاب المذكور وهو الفصل المتعلق بالقدر .

فهذان النوعان من الفعل ما هو مقَدَّرٌ عليه منهما أن يصيبه لم يكن ليخطئه ، وماهو مقدر عليه منهما أن يخطئه لم يكن ليصيبه كما جاء في نص الحديث الشريف ـ وهذا هو المراد والله أعلم ـ قال تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ....) التوبة/ ٥١ .

(٣) ـ فعل وقع مني ، وهذه منطقة اختيار العبد (أأ فعل هذا ، أم لا ؟) ، (أأفعل هذا أم ذاك ؟) ، (هل أسير في هذا الطريق أم في ذلك الطريق ؟) ، فالعبد يختار ما وقع منه من فعل حقاً ، والله تبارك وتعالى يعلم مسبقاً ومنذ الأزل ما سيختاره عبده من أفعال ، وما سيقع بعبده من أحداث ، وما يتعرض له من أمور ، كيف لا وهو الخالق العليم ، الفاطر الحكيم ؟ قال سبحانه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ؟ تبارك . وقد أمر الخبير سبحانه القلم فكتب علم كل شيء هو كائن إلى يوم القيامة ، ومقادير كل شيء حتى تقوم الساعة .

هذا وليس معنى (المقادير الواقعة في منطقة اختيار العبد)

أنها أمور يسوق الخالق عبده إليها سوقاً ، بل هي : « وقوع الأشياء ـ التي يختار العبد فعلها ـ مطابقة لما علمه الله سبحانه وكتبه مسبَقاً ، والله سبحانه هو خالق الأشياء كلها حيث قال (والله خلقكم وماتعملون) ، خلق سبحانه الشيء ونقيضه ، وخلق الآلة والطاقة للعبد ، وبهما يقدر العبد على فعل أمور متعددة ، والعبد هو الذي يختار هذا الفعل أو ذاك ، وهو مسئول عن اختياره هذا ، راجع من ص (٣٧ ـ ٣٩) من هذا الكتاب ، ولنتذكر المثال المذكور في الصفحة (١٨) من هذا الكتاب عن المدرس الخبير بأحوال طلابه الذي كتب في مذكراته : (فلان سينجح ، وفلان سيرسب) ، وكانت النتيجة كذلك حقاً ، فهل يكون هو الذي أجبر هذا على النجاح ، وذاك على الرسوب ؟

فإذا كان هذا في البشر ، وعلم البشر ظني قد يتخلف ، فما بالك بعلم الله الخالق سبحانه ؟ فإنه يقيني لا يتخلف ، وهكذا يسعى كل مخلوق إلى عمله ويكدح باختياره ، قال سبحانه : (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه

سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى) النجم ٣٩ ـ ٤١ ، وقال سبحانه (ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ...) الانشقاق .

وبهذا الفهم نجد حديث عبادة بن الصامت الذي رواه أبو داود ينسجم تمام الانسجام مع عقيدة القدر عند أهل السنة والجماعة ، وليس فيه جبر كما زعم بعض الباحثين .

(الحديث الثاني) ـ هو الحديث الذي رواه البخاري ومسلم رحمهما الله (فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) .

(١) ـ هذا الحديث الشريف تبيان لشمول العلم الإلهي لكل ما سيختاره العبد من أعمال في بدايته ونهايته ، وأن بعض الخلق تكون نهايتهم خلاف بدايتهم ، وهذا أمر مشاهد في عالم الواقع ، نبصره على مسرح الحياة ، فكم من إنسان بدأ

حياته متهوراً طائشاً منحرفاً ضالاً ثم نراه بعد حين من الزمان قد تاب إلى الله وأناب ، وصار يعَض أصابع الندم على ما فرط ، فصلح أمره ، واستقام دينه حتى كانت خاتمته خيراً ! وكم من إنسان كان يبدو للناس صالحاً ، محافظاً على صلاته ودينه ، فتحيط به ظروف فاتنة ، وتستدرجه أحداث مغرية ، وإذا بك تراه بعد فترة من الزمان قد غيّر ثوبه [١] ، واستبدل طريقه ، وغرق في لجج الضياع [٢]؛ حتى إنك لتعجب لحاله ، وتدهش كيف طوّحت به هاتيك الظروف ؟ وإلى أي دَرْك أوصلته .. ؟ حتى صارت نهايته شراً والعياذ بالله .

---

(١) قال تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير) الأعراف/٢٦ .

(٢) لكن هذه الحالة قليلة نادرة والحمد لله ، وقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يُخْتَم له ، فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من عمره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً) ، جامع العلوم والحكم (ص ٤٩) .

(٢) ـ ولعل الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر : (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)[1] ، وزاد البخاري (إنما الأعمال بالخواتيم) ـ يلقي ضوءاً يفسر لنا هذا الحديث ، فإن بعض الناس قد يعمل صالحاً فيبدو للناس في الظاهر لهم أنه يعمل بعمل أهل الجنة ، ولا يدري أحد أنه سينقلب ليعمل عمل أهل النار فيكون من أهل النار ، ولكن الله سبحانه يعلم ذلك مسبقاً [2]، وقد خطه في

(١) أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد في قصة الرجل الذي امتدحه الصحابة لحسن بلائه في القتال ، فقال صلى الله عليه وسلم : هو من أهل النار، فتبعه صحابي فجُرح الرجل فاستعجل الموت فانتحر بسيفه ، فجاء الصحابي وقال : أشهد أنك رسول الله وقصّ عليه القصة ، فقال صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليعمل ... الحديث) . جامع العلوم والحكم (ص ٥٠) .

(٢) وربما كان المعنى أنه يعمل الصالحات رياء وتظاهراً فيبدو للناس حسب الصورة والظاهر أنه يعمل بعمل أهل الجنة ولكنه من أهل النار ، =

كتاب [1]، أما إذا اعتبرنا المخلوق محكوماً بكتاب لا يتعداه ، ولا خيار له فيما سواه ، فكيف يتفق هذا مع أمره سبحانه (ياأيها الذينءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ؟ آل عمران/١٠٢ ، فكيف تتأتّى التقوى من العبد ، والحفاظ على الإسلام ، وعدم الموت إلا على الإسلام وهو مكبّل بكتاب يعجزه عن الاختيار ؟

(٣) ـ بناء عليه فالحديث الشريف فيه حث للمسلم الذي يعمل بعمل أهل الجنة بالثبات على ذلك والحفاظ عليه حتى يدركه الموت وهو عليه ، وفيه تحذير له كذلك لئلا ينقلب فيعمل بعمل أهل النار ، كما أن فيه ترغيب لمن يعمل بعمل أهل النار بالمسارعة إلى التوبة فإن باب الجنة أمامه مفتوح إذا مات على عمل أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم .

= وهكذا كان المنافقون يصنعون ، فيصلون ويحضرون مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم رياء ونفاقاً وهم يبطنون الكفر .

(١) دون أن يكون لهذا الكتاب سلطان جبر قاهر عليه ، إرجع إلى الأمثلة صفحة (١٨) من هذا الكتاب .

(الحديث الثالث) ـ وهذا كذلك يرفضه الشيخ محمد الغزالي ، وهو الحديث المروي عن عمر رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) الأعراف/ ١٧٢ ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : (إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار) رواه مالك وأحمد وأبو داود والنَّسائي

وابن حبان في صحيحه والترمذي وقال حديث حسن ، والحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في تلخيصه .

يزعم الشيخ محمد الغزالي أن هذا الحديث يكاد يكون نصاً في الجبر ، ويعتبره من أوهام الرواة ، وأنه جهل بمعاني القرآن الكريم ، لأنه ميل بعقيدة القدر إلى الجبر ، والجبر تخريب لدين الله لأن القرآن الكريم يربط ربطاً متكرراً بين اختيار الإنسان لعمله والجزاء الذي سيلقاه هذا العبد يوم القيامة على عمله واختياره ، فجزاؤه من جنس عمله .

ثم يورد الشيخ الغزالي في نفس الفصل وبعد صفحات معدودات كلمة أعجبته للأستاذ أحمد بهجت عنوانها « المغفلون » .

وإني هنا ليس لي فضل في شيء أبداً سوى أن أقوم بالجمع والتقريب بين هذه الكلمة الرائعة حقاً وهذا الحديث الشريف ، لأني أرى أنها تلقي أضواء كاشفة لأعماق معاني الحديث الشريف فتنيرُ الفهم بشكل رائع مقنع ، وأوردُ

الكلمة بقليل من التصرف :

(هناك ناس يحبون الله ، وهناك ناس يكرهون الحق ، هناك ناس تخشع قلوبهم لذكر الله ، وناس يشمئزون إذا كان الأمر يتعلق بالحق ، وهناك ناس يحبون الدين وانتشار الفضيلة والقيم ، وناس يكرهون الدين كرههم للعمى ، ويحبون إشاعة الفاحشةِ والعُرْيِ في الناس لتسقط العيون عليه سقوط الذباب على اللحم المكشوف ، والصراع بين المؤمنين والكافرين قائم وهو جزء من سنة الله في الدنيا ، لقد خلق الله ناساً هم أهل الجنة وناساً هم أهل النار ، فمن يدخل الجنة فبرحمة الله وعفوه ، ومن يدخل النار فبإصراره وعناده ، واختياره بحريته ، ولا حجة لأحد على الله ، والأصل المعروف هو استغناء الله عن الخلق فهم الفقراء إليه ، المحتاجون المفتقرون إليه سبحانه (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) فاطر/١٥ ، فعبادة العابدين لا تزيد في ملكه ، وكفر الملحدين لا يَنْقُصُه شيئاً ، والدين فائدة للناس ، ولا فائدة منه لله ، وبعدها يقول

الأستاذ أحمد بهجت : ومن هنا نرى المغفلين عادة يقفون في صف المعسكر المعادي للدين ، وقد وصف الله سبحانه هؤلاء المغفلين بقوله (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الأعراف/١٧٩ . فهم المغفلون الغافلون المغبونون ، لذا تمت مقارنتهم بالبهائم ، بل كانت البهائم أحسن منهم حالاً وأسلم مآلاً (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وهكذا نرى الظالم يكسب الدنيا ، ويخسر الآخرة ، وهذا تغفيل عظيم لأن الدنيا إذا قيست بالآخرة لكانت أقل من جناح بعوضة) انتهت .

فلنعد بعد هذه الكلمة النيرة إلى الحديث المروي عن عمر رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ....) .

إنه تعالى أشهدهم على أنه خالقهم ، وأنه الواحد الذي لا إله غيره ، ولامعبودَ سواه ، ثم أوجد سبحانه مخلوقه

قادراً على الاختيار بين خيارين متضادين ، وعندما مسح سبحانه بيمينه على ظهر آدم فاستخرج ذرية وهو يعلم أن هؤلاء مآلهم للجنة فقال خلقت[1] هؤلاء ـ بمعنى قدرت وصوّرت ـ فهم مآلاً للجنة لأنهم في عمل أهل الجنة يكدحون ، وفي سبيل الخير يسعَوْن ، ثم مسح أخرى فاستخرج ذرية وهو يعلم أن هؤلاء مآلهم للنار فقال خلقت ـ بمعنى قدرت وصوّرت ـ هؤلاء فهم مآلاً إلى النار لأنهم في سبيل الشر يسعون ، وفي عمل أهل النار يكدحون (ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) الانشقاق

---

(١) خلقت بمعنى قدّرتُ وصوّرتُ ، قال في مختار الصحاح : (الخلْق : التقدير ، يقال خلقت الأديم ، إذا قدرتُه قبل القطع) انتهى ، وقال تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) أي المقدِّرين أو المصوِّرين ، بدليل قوله تعالى لعيسى عليه السلام : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ...) المائدة/ ١١٠ ، أي تصور وتجسّم وتقدِّر من الطين ماهو كهيئة الطير ، وقوله صلى الله عليه وسلم (إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحْيوا ماخلقتم) أي صوّرْتم ، رواه الشيخان وأحمد .

(وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى) النجم /٣٩ ـ ٤٠ .

وكم ، وكم لاقَى المؤمنون المستضعفون من صنوف الويل والأذى ، والذل والهوان من أولئك الجبابرة الظالمين ؟! فلطالما[1] ، ولشدّما[1] بغىَ الطغاة المجرمون وَعَدَوا على جماهير المؤمنين المستضعفين وأذاقوهم الويلات ، وبَثُّوا في قلوبهم الرعب ، وكانوا منهم يسخرون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ويضحكون ، ولذلك فإنهم عندما يندم أحدهم يوم الحساب على مافرط ويتمنى الرجعة إلى الدنيا (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ...) المؤمنون/٩٩ ، ١٠٠ ، يجيبهم الله بقوله (إخسئوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادي يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سِخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون) المؤمنون/١٠٨ ــ ١١٠ ، ويحكي سبحانه حال هؤلاء

---

(١) فعل لا فاعل له ، ومثله (قلما) .

المجرمين فيقول (إن الذين أجرموا كانوا من الذين ءامنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ... هل ثُوِّبَ الكفار ماكانوا يفعلون ؟) المطففين .

فأي ظلم في عقاب هؤلاء الجبابرة المكذبين بالنار ؟ وآي القرآن الكريم قاطعة في أن أعمال الكفار هي التي صَيَّرتهم أهلَ النار ، وأن ظنَّهم السيىء بالله هو الذي أرْداهم (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) فصلت/٢٣ ، (ياأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ماكنتم تعملون) التحريم/٧ ، وكذا آي القران الكريم قاطعة بأن أعمال الصالحين هي التي أنجتهم وصَيَّرتْهم من أهل الجنة ، قال تعالى (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) الأعراف/٤٣ ، فلا احتجاج بقدر ، ولا اعتذار بجبر ، راجع ص (٥٤ ، ٥٥) من هذا الكتاب .

وهكذا نرى أنه سبحانه عندما خلق خلقاً للنار ـ بمعنى قدَّر وعلم أنهم من أهل النار ـ أنه لم يسيِّرهم جبراً عنهم إلى النار ، بل هو يعلم مسبقاً أنهم سيكونون من أهل النار ،

وعندما يتساءل متسائل لماذا لم يخلقهم جميعاً للجنة ؟ فكأنه يريد من الخالق سبحانه أن يجعل الخلق جميعاً مسيَّرين مجبرين إلى الجنة ، وهل يستحق المثوبة من كان مسوقاً إلى الطاعة سوقاً ؟ وكذلك لا يستحق العقوبة من كان مسوقاً إلى المعصية سوقاً ، أو كأن هذا المتسائلَ يريد من الخالق أن يجعل البشر ملائكة منزوعي الاختيار يسيرون في خط واحد هو خط الطاعة لله فقط ، وقد سبق إلى هذا التساؤل سيدنا موسى عليه السلام ، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره [1] الحديث الذي أخرجه ابن جرير الطبري من حديث عمرو بن أبي سويد : (أن موسى عليه السلام قال : يارب خلقك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة ، وفريقاً في النار ، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة ، فقال : ياموسى ارفع درعك ، فرفع ، قال قد رفعت ، قال : ارفع ، فرفع فلم يترك شيئاً قال : يارب

---

(١) في تفسير قوله تعالى (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) الشورى/٨ ، ولم أعثر على تخريج لهذا الحديث ، وهو من أخبار بني إسرائيل على مايبدو ، وأوردته هنا للاستئناس بمدلوله فقط .

قد رفعت ، قال : ارفع ، قال : قد رفعت إلا مالا خير فيه قال : كذلك أُدخِل خلقي كلهم الجنة إلا مالا خير فيه) .

أما تتمة حديث عمر[1] رضي الله عنه (أن رجلاً قال يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار) . فإن مقدمة الحديث التي تم توضيحها تلقي ضوءاً على خاتمته .

هذا وإذا كان من المعلوم عند رجال الحديث أن أجود تفسير لغريب الحديث ما جاء مفسراً في رواية أخرى ، أو في حديث آخر فإننا إذا أردنا فهم هذا المقطع الأخير من حديث عمر رضي الله عنه فهماً كافياً لابد أن نضع بإزائه حديث البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :

(١) وهو الحديث الثالث الذي ورد ذكر نصه الكامل ص ٦٦ من هذا الكتاب .

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة ، فقال : (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار) فقالوا : يارسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) [1] ثم قرأ : (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) [2]، ومثله حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه قال : يارسول الله أنعمل لأمر قد فُرِغَ منه أو لأمر نستأنفه ؟ فقال : (لأمر قد فُرِغَ منه) ، فقال سراقة : ففيم العمل إذاً ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل عامل ميسر لعمله) [3] .

فإذا تأملنا في حديث علي رضي الله عنه قولَ النبي صلى الله عليه وسلم (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده

(١) أي لما قُدِّر له ، وكُتب ، إرجع إلى المثالين (ص ١٨)من هذا الكتاب .

(٢) أخرجه الشيخان وأبو داود .

(٣) رواه مسلم وابن جرير .

من الجنة ومقعده من النار) عرفنا أن الخالق الرحيم سبحانه قد جعل لكل مخلوق مقعدين ، مقعداً في الجنة ومقعداً في النار ، وليس كما يظن أن لمخلوق ما مقعداً في الجنة ، ويساق إليه ، ولمخلوق آخر مقعد في النار ، ويساق إليه ، بل لكل مخلوق مقعدان : واحد في الجنة وآخر في النار ، ويوم الحساب ، يوم التغابن يأخذ المؤمنون مقاعدهم في الجنة ويرثون مقاعد الكفار التي في الجنة (ونُودوا أن تلكم الجنةُ أورثتموها بما كنتم تعملون) [١] الأعراف/٤٣ ، ويَرِثُ الكافرون مقاعد المؤمنين التي في النار ، وهذا هو الغبْن العظيم ، والخسار الكبير ولذلك سمي يوم التغابن ، وهذا مايدل عليه الحديث الشريف الذي رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أهل النار يرى منزله من الجنة فيكون له حسرة ، فيقول : (لو أن الله هداني لكنت من المتقين) ، وكل أهل

(١) ولهذا سُمّوا الوارثين ، قال تعالى (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) المؤمنون/١٠ .

الجنة يرى منزله من النار ، فيقول : (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) فيكون له شكراً ، قال : وما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، الكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك في قوله تعالى (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)[1] ، ورواه ابن ماجه بلفظ (ما منكم من أحد إلا له منزلان ، منزل في الجنة ومنزل في النار ،فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى (أولئك هم الوارثون) .

فإذا عرفنا أن لكل عبد مقعدين ، أحدهما في الجنة والآخر في النار ، فإن العبد هو الذي يختار طريقه إلى أحد المقعدين ، ويكدح ساعياً إليه ، وعندما يختار العبد طريق الخير والهدى الموصلَ إلى مقعده في الجنة يفرح الله بعبده

(١) أخرجه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم وابن مِرْدُويَه ـ وهذا لفظه عند أهل الحديث أما عند النحويين فبفتح الدال والواو وتسكين الياء ـ عن أبي هريرة مرفوعاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فَأيِسَ منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخِطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أَخطأ من شدة الفرح)[1] ، ويرحّب الله سبحانه بهذا العبد المقبل عليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[2] ، ويزيده هدايةً وثباتاً على طريق الإيمان ، قال تعالى (ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً) مريم/٧٦ ، ومن يختار طريق الشر والضلالة الموصلَ إلى مقعده في النار يخذله ربه سبحانه ، وَيَمُدُّه في ضلالته يتخبط ، قال تعالى (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) مريم/ ٧٥ ، ويذره في طغيانه يتعثر ، قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، ومسلم في كتاب التوبة ، والترمذي ، والدارمي

(٢) أخرجه مسلم .

تعالى : (ويذرهم في طغيانهم يعمهون) الأعراف/١٨٦ ، وقال سبحانه : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) الصف ، وهنا تجده الشياطين طريداً من رحمة الله ولطفه ، مجرداً معدوماً من حفظ الله وحراسته وعنايته ، فيصبح لقمة سائغة لها ، وغنيمة سهلة بين يديها ، فتحوشه[1] من كل جانب ، وتَؤُزُّه إلى جهنم أزاً والعياذ بالله .

وبعد هذا الفهم لحديث علي رضي الله عنه حيث عرفنا أن لكل عبد مقعدين ، أحدهما في الجنة والآخر في النار ، والعبد هو الذي يسعى باختياره إلى أحد المقعدين ، بعد هذا فلنرجع إلى تتمة حديث عمر رضي الله عنه السالفة الذكر في ص (٧٤) ، ونحن نوقن أن الله سبحانه يعلم مسبقاً ومنذ الأزل ما سيختاره كل عبد من عباده ، ولذا فإن العبد الذي يختار طريق الجنة يُيَسِّرُه ربه لليسرى ، فيسهل عليه عمل أهل الجنة ، حتى إنه من شدة يسره عليه كأنه ما خُلِقَ إلا له ، فكأن الله استعمله في هذا الطريق ، ووظّفه له ، حتى غدا التكليف

---

(١) حاش الصيد : جاء ه من حواليه ليدفعه إلى الحِبالة .

الذي هو صعب وشاق على المنافقين ، وكبير على الكافرين ، غدا أسهل مايكون عليه ، قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) البقرة / ٤٥ ، وهكذا يغدو هذا العبد مُحِبّاً لطريق الخير والصلاح ، لا يستريح إلا بمجالسة أهل الهدى والفلاح ، قال تعالى : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ...) الحجرات/ ٧ ، فتصبح الطاعة راحة لقلبه ، فرجاً لكربه ، قرة لعينه ، أُنْساً لوحشته ، قال صلى الله عليه وسلم : (أرحنا بها يابلال)[١] ، وقال : (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[٢]، وهكذا تجد هذا العبد الصالح كأنه قد استُعمِل في طريق الجنة ، وَوُظِّف له ، كأنه ما خُلِقَ إلا له [٣] ، فإذا حدث وجمعته صدفة بجماعة من أهل الشر في مجلس سوء يشعر بالضيق والكرب ،

---

(١) رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد بلفظ (يابلال أقم الصلاة أرحنا بها) .

(٢) أخرجه الطبراني وأحمد والبيهقي والنسائي .

(٣) ارجع إلى (ص ٤٩ ـ ٥٢) من هذا الكتاب .

ويتحيَّن العصفور أول فرصة للتحرر من القفص المظلم ، ولسان حاله قبل مقاله ينطق قائلاً : (إني ماخلقت لهذا) لأنه يشعر بمعصيته كأنها جبل يرسو على صدره ، أما المنافق فليست المعصية عنده إلا ذبابةً سقطت على أنفه فطردها ، فالأساس الذي تُبْنَى عليه هذه النتيجة هو الاختيار الذي يتوجه إليه العبد بنفسه ، ويخطو فيه بحريته ، قال سبحانه : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) الليل .

وبعد هذا التوضيح الشافي إن شاء الله لنعد إلى الجملة الخاتمة في حديث علي رضي الله عنه ـ وقد ورد في ص ٧٥ ـ إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة : (اعملوا فكلٌ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له)(١) .

إن ما عرفناه من توضيح سابق كفيل أن يوضح لنا معنى هذه الجملة من قوله صلى الله عليه وسلم ، وإذا أردنا

(١) هذا هو الحديث الرابع الذي ظن بعض الباحثين أنه يقرر عقيدة الجبر كذلك ، إرجع إلى نصه الكامل ص (٧٥) ، وتوضيحه بعده .

المزيد من القول فيجب أن نعلم أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ نصاً بمفرده ، ويحاولَ تفسيره بمعزل عن النصوص الأخرى التي قد تفسره ، وإذا كان أجود تفسير لغريب الحديث ما جاء مفسراً في رواية أخرى ـ كما سبق ذكره ـ فإذاً يجب علينا إذا قرأنا قوله صلى الله عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)[1] ، في حديث علي رضي الله عنه فلنضع إزاءها قوله صلى الله عليه وسلم (كل عامل ميسر لعمله) كما وردت في حديث جابر [2] رضي الله عنه .

وهنا يجب أن نتأمل ملياً قوله صلى الله عليه وسلم (كل عامل ميسر لعمله) ، حيث نسب الرسول صلى الله عليه وسلم العمل للإنسان ، فهو الذي يختار عمله ، ويشق فيه طريقه ، وهنا يأتي تيسير الله له في طريقه واختياره قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره

(١) أي لما قُدِّر له ، وكُتب ، انظر المثالين (ص ١٨) من هذا الكتاب .

(٢) سبق ذكره بعد حديث علي رضي الله عنه في الصفحة (٧٥) من هذا الكتاب وقد رواه مسلم وابن جرير .

لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) الليل ، فكل عبد ميسر لعمله الذي اختاره هو لنفسه ، واختياره من كَسْبه هو ، لذا نُسب العمل إليه ، فإذا اختار العمل لليسرى يسره الله لعمله ، وإذا اختار العمل للعسرى يسره الله لعمله ، جاء في الحديث القدسي عند مسلم (ياعبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) .

هذا والجنة خلقها الله للإنسان ، والنار خلقها الله للإنسان ، وخلق الله لكل إنسان مقعداً في الجنة وآخر في النار ، وكل مخلوق يسره الله لعمل الجنة كما يسّره [1] لعمل النار ، وهذا هو معنى قوله تعالى (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) الإنسان/٣ ، وقوله تعالى (ثم السبيل يسره) [2] .

---

(١) أي دلّه وعرّفه وسهّل له الطريقين قال تعالى :(وهديناه النجدين) .

(٢) قال مجاهد : هذه الآية كقوله تعالى : (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) وهو الأرجع ، أنظر تفسير ابن كثير .

وبناء عليه فيكون معنى (فكل ميسر لما خلق له) أي كل مخلوق مُيَسَّرٌ لعمل الجنة وكذلك ميسر لعمل النار ، وكلا الجنة والنار خُلقَتا للإنسان ، وهذا فهمٌ جديد ـ والله أعلم ـ لمعنى الحديث يضاف إلى الفهم المعهود الذي هو : (كل مخلوق ميسر لعمل الجنة ولعمل النار اللتين خلق الإنسان لهما أو لإحداهما) .

ومعنى الآيات الواردة قبل قليل هو أن الخالق سبحانه بيّن لعبده طريقي الخير والشر ، وعرفه ودلّه عليهما ، ويسّر له ، ومكّنه من اختيار أي الطريقين يشاء ، فيسّر الله سبحانه لعبده عمل أهل الجنة ، ويسر له عمل أهل النار ، لكن من هو الذي يسّر الله له عمل أهل الجنة ؟ ومن هو الذي يسر الله له عمل أهل النار ؟

من اختار طريق الجنة يسره الله له ، وسهل عليه عمل أهل الجنة ، واستعمله فيه (١) حتى يُدخِلَه الجنة ، حيث يرحب به ربه ، ويفرح به ، ويزيده هدايةً وثباتاً على طريق الإيمان

(١) أي وظّفه في هذا العمل بأن جعل له من هذا العمل وظيفة له .

حتى يموت عليه فيدخل الجنة ، ومن يختار طريق النار ، وعَمَلَ أهل النار ، ويرفض هداية الله ، ويبتعد عن الحق الذي جاءت به رسل الله ، ويعاديه ، هذا العبد يمقته الله ، قال سبحانه (إن الذين كفروا ينادَوْن لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) غافر/ ١٠، ويَمُدُّ له في ضلالته وحَيْرته ، قال سبحانه : (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) مريم/ ٧٥ ، وقال : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) الصف ، ويتركه في طغيانه يهيم ويتعثر ، قال سبحانه : (ويذرهم في طغيانهم يعمهون) الأعراف/١٨٦ ، وإذا مافقد العبد عناية ربه وحفظه ، وخسر حمايته وعونه ، وصار وحيداً طريداً في بيداء الحياة ، وقَفْرِ الدنيا تتمكن منه الشياطين ، ويصبح لها سلطان عليه ، قال تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) الحجر/ ٤٢ ، وقال سبحانه (إنه ليس له سلطان على الذين ءامنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يَتَولَّوْنه والذين هم به مشركون) النحل/٩٩ ــ ١٠٠

فتتسلط عليه الشياطين ، وتتناوشه من كل الجهات ، وتغتاله من كل جانب ، وتَؤُزُّه إلى عمل النار أزاً ، قال تعالى : (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين) الزخرف/٣٦ ، وقال : (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) مريم/٨٣ ، ربنا سبحانه قَيَّضَ الشيطان وسلطه على من تعامى عن الحق ، وابتعد عن ذكر الله ، وانخرط في الصف المعادي لدين الله ، كما في آية الزخرف ، أما في آية مريم فعلى من أرسل الله سبحانه الشياطين ؟

إنه سبحانه لم يرسل الشياطين على من آمن واختار طريق الجنة ، بل أرسلها على الكافرين الذين كفروا بالله ، وأنكروا دينه ، ورفضوا رحمته ، وعادَوْا رسله ، فاختاروا عمل النار فوجدوه ميسراً لهم (وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله إذا تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى ، فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب

وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) الليل . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، واستغفر الله العظيم وأتوب إليه .

محمد محمود عجاج

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٤١ ـ (٢) ـ حديث مسلم يوضحه	٦٤
٤٢ ـ (٣) ـ الحديث فيه حث ، وتحذير ، وترغيب	٦٥
٤٣ ـ الحديث الثالث الذي يرفضه الشيخ الغزالي	٦٦
٤٤ ـ توهّم الشيخ الغزالي	٦٧
٤٥ ـ كلمة أحمد بهجت	٦٨
٤٦ ـ عود إلى الحديث الثالث لتوضيحه	٦٩
٤٧ ـ أعمال الكفار هي صيّرتهم أهل النار	٧٢
٤٨ ـ تساؤل موسى عليه السلام	٧٣
٤٩ ـ توضيح الحديث الثالث بحديثي علي وجابر	٧٤
٥٠ ـ توضيح حديث علي ، وأحداث يوم التغابن	٧٥
٥١ ـ فرح الله بتوبة التائب وخذلانه الضال	٧٨
٥٢ ـ توضيح حديث عمر بحديث علي	٧٩
٥٣ ـ توضيح (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)	٨١
٥٤ ـ تسلّط الشياطين على الضال	٨٥